

# المصطلح الندي بين ابن المعتز في كتابه البديع والمرزياني في كتابه الموسح بحث في أثر البيئة في صياغة المصطلح الندي

د. عبد العزيز شويط

جامعة جيجل (الجزائر)

مقدمة

لقد رأيت أن لا أتحدث عن أصلالة المصطلح النقدي عند ناقد عربي اختص بالنقد وعرف به، بمن في ذلك قدامة ابن جعفر أو ابن رشيق الميسيلي أو القاضي عبد العزيز الجرجاني أو حتى حازم القرطاجي أو الأmedi أو الجاحظ أو حتى عبد القاهر الجرجاني أو عبد الكريم النهشلي أو غير هؤلاء أو غير هؤلاء من عرف بالنقد و لازمه طويلاً أم قليلاً كعبد الرحمن ابن خلدون في حديثه عن الأدب و النقد في المقدمة، وإنما آثرت أن أجعل مجال بحثي هنا في علمين من أعلام الاشتغال العربي بالأدب ولا سيما الشعر من خلال البحث في نقاده، وإذا كان المرزباني قد جعل كتابه الموسّح في علم الشعر خاصة، فإن ابن المعتز قد جعل كتابه في علوم البلاغة بالجملة وهو ما كان يطلق عليه بعلم النديع والمقصود به علوم البلاغة الثلاث (البيان و النديع و المعانى) .

لقد دعانا إلى تلمس طبيعة المصطلح النقدي عند أمير المؤمنين ابن المعترض إشارة للدكتور شوقي ضيف سنوردها فيما بعد تتعلق بطبيعة المصطلح في هذا الكتاب، أما الموسوعة المرزبانية فيختص كما هو مبين في عنوانه بما أخذ العلماء على الشعراً مما يضمن انحرافاً أقوى من قبل هذا الكتاب في العملية النقدية، وإن كان المرزباني مجرد ناقل ونصف.

ولكن قبل الخوض في البحث واستقصاء المصطلحات النقدية في هذين الكتابين يجدر بنا أن نعرج ولو على تعريف واحد أو اثنين يتطرق لمفهوم المصطلح، ذلك أن ((الدلالة الاصطلاحية) فهي اتفاق جماعة على أمر مخصوص فإن تم هذا الاتفاق بين الفقهاء في مسألة معينة فهو مصطلح فقهي، وإن تم بين المحدثين فهو مصطلح في الحديث، وإن كان بين النحاة فهو مصطلح نحوبي، يقول الأمير مصطفى الشهابي: والاصطلاح يجعل للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها اللغوية أو الأصلية، فالسيارة في اللغة: القافلة، والقوم يسرون، وهي في اصطلاح الفلكيين: اسم لأحد الكواكب السيارة التي تسير حول الشمس، و في الاصطلاح هي الأوتومبيل.

والمصطلحات لا توضع ارتجالاً، ولا بد في كل مصطلح من وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة كبيرة كانت أو صغيرة بين مدلوله اللغوي ومدلوله الاصطلاحي<sup>٠</sup>، فشرط المصطلح في البقاء الاتفاق عليه، وإلا لن يكون هناك مصطلح مع الاحتراس في الحديث عن مفهوم المصطلح وهو ما يقوم عليه هذا البحث، والذي حدد بالمصطلح النقدي كي نخرجه من دائرة بقية المصطلحات الأخرى المتعددة ))<sup>١</sup> وحتى لا نسويه بغierre من بقية المصطلحات المنتسبة إلى حقول معرفية أخرى غير حقنا هذا ( النقد الأدبي ). هذا عن المفهوم، أما من حيث التأصيل فإننا (( لو أردنا الحديث عن نشأة المصطلح النقدي فإنه يرتبط ارتباطاً كبيراً بنشأة النقد الأدبي، والتي لم يخل منها عصر من عصور الأدب حسب المستوى الفكري والثقافي لذلك العصر بيد أن العصر الجاهلي مجال واسع للحديث عن البدايات أو مرحلة التكوين، فلو قلنا أنظارنا في تلك الملاحظات أو الإشارات سواء عند النابغة الذهبياني أستاذ النقد الجاهلي، أو غيره كأم

جندب في قضائهما بين أمرى القيس وعلقمة الفحل أو طرفة بن العبد في ملاحظته على جمل المسيب بن علس أو ربيعة بن حذار الأستدي إلى أن ننتهي بـ ملاحظة أهل المدينة على أقوال النابغة فلن نجد مصطلحا هاما شكل مفهوما بارزا في عالم النقد الأدبي وهذا لا ينفي أن يكون حاضرا في أذهان الناس إلا أنه لم يتبلور في شكله الإصطلاحى الذي يجعل منه مصطلحا شرعيا<sup>2</sup> ويمكن الاستشهاد في هذا المجال بمصطلح السرقة الأدبية الذي ذكره كل من حسان بن ثابت وطرفة بن العبد في شعرهما<sup>3</sup>.

### المصطلح النقدي في علم الشعر العربي ( المؤثرات وال العلاقات )

يتحدث الدكتور لطفي عبد البديع عن الأشاعرة في مسألة الاسم والمسمى الشائبة المقابلة لثنائية المصطلح والمدلول فيقول: (( فمدار الأمر عندهم على المدلول الذي آل إليه الاسم وفيه بعده في الذات وكان هذا هو أول فصل من فصول إيقال كاهل اللغة بالعقليات في الفكر العربي قبل القول بالوضع وهو من باب ما سماه دريد بـ مركزية المنطق في الفكر الأوروبي ))<sup>4</sup>

إتنا إذا حاولنا تتبع أثر البيئة في النقد لا بد من تحديد البيئة أولاً، فسواء تعلق الأمر بأمير المؤمنين عباسى عاش في بغداد أو لابن المرزباني الرئيس بلغة أهل الفرس، مما يعني السيادة والشرف والرياسة في بغداد العباسية انكشفت لدينا أن ظروف البيئة عند كل من المرزباني وابن المعتز تكون واحدة مع فارق في القيمة بين ملك من ابناء الملوك وشريف من أولاد ذوي الرياسة، ومع ذلك يمكن القول إنه غالباً ما تتحدد علاقة البيئة بالمصطلح النقدي من خلال ما يلي :

- طبيعة الدوائر العلمية والمراکز الثقافية المسيطرة على المجتمع
- الطبيعة الحضارية أو البدوية لبلاد الناقد
- طبيعة الناقد و تكوينه العلمي و الثقافي
- غالبية اشتغاله العلمي و إنتاجه المعرفي و الفكري
- المذاهب الدينية و الفلسفية السائدة في المجتمع

و لما كان كل من ابن المعتز عبد الله و المرزباني قد عاشا في العصر العباسى فإن الحياة العباسية بتوفها و غناها العلمي و الأدبي و الفلسفى و الاختلاط مع الوافد الأجنبى هي التي صاحت طبيعة المصطلح النقدي المتأثر بهذه البيئة في تجاذباتها العلاقة مع المكان و الزمان عند ابن المعتز و المرزباني ، مع ميل واضح عند ابن المعتز إلى اصطلاحات العرب البدوية الهاشمية أكثر من ميله إلى فارسية أحوال آبائه و أجداده الفرس ، و ميل المرزباني إلى اصطلاحات الحضارة الفارسية أكثر من ميله إلى طبيعة الثقافة السائدة الوعاء و هي ثقافة بغداد العربية ، و مع ذلك في بغداد العباسية فيها من المؤثرات الثقافية الفارسية بقدر ما فيها من العناصر الثقافية العربية ، و قد يبدو ذلك جليا حتى عند أنصار العربنة العباسية بمن فيهم خلفاء بنى العباس .

ليست العلوم في علاقتها بالنقד الأدبي على مسافة واحدة منه ، فبعض العلوم تحقق معه التجانس كعلوم اللغة و اللسان و الأدب وبعضها تقترب منه كالمنطق و الفلسفة و بعضها تعدمه من منظور النقد الأدبي القديم كالطب و الحساب و الهندسة و غيرها ، (( و مما يلاحظ أن النقد الأدبي في حد ذاته عاش و ترعرع في أحضان علوم أخرى

سلبته كثيرة من شخصيته المستقلة و طبعتها بطبعها رحباً من الزمن ، فعد جزءاً من تلك العلوم مثل علم اللغة و البلاغة و التاريخ و الأدب و النحو و غيرها إلى أن خرجت الفئة المتخصصة في القرن الثالث الهجري التي تمرست بكثير من قضايا النقد الأدبي مما آذن بظهور مناهج نقدية و مقاييس فنية ، بيد أن المصطلح النقدي ولد و تشكل قبل منهجية النقد الأدبي ))<sup>5</sup> و لذلك تجاوزت هذه العلوم في علاقتها بالنقד المساعدة و المساندة إلى اتخاذها مقاييس ، و لذلك قيل المعيار البلاغي و المعيار البياني و المعيار اللغوي و المعيار النحوبي و المعيار الموسيقي العروضي ... الخ

### عبد الله بن المعتز ( الترف و التفرغ )

النشأة العلمية هي الضامن للصياغة المذهبية العلمية و الدينية ، أو الإيديولوجية و من ثمة النظرة وفقها للنص الأدبي ، و النشأة التعليمية تحديداً ، فابن المعتز السني صاغته مدرسة هي بالضرورة تختلف عن مدرسة مؤدبى المأمون و مدرسي المعتصم ، فمن أساندته ابن المعتز أبو العباس المبرد صاحب الكامل و أبو جعفر بن زياد الضبي صاحب القراءات و النحو و الأديب أبو الحسن الدمشقي و أبو علي العنزي و أبو العباس ثعلب إمام اللغة و النحو .  
فهذه المدرسة هي التي أنتجت شخصية ابن المعتز العالم و السياسي و الشاعر و البلاغي الناقد كما هو الحال هنا ، و كان ابن المعتز كما يذكر عمر فروخ أيضاً أديباً شاعراً و ناقداً عالماً مصنفاً يجيد فني النظم و النثر واسع الثقافة بعده من فنون المعرفة بصيراً بطبيعة الألحان من كتبه البديع ، فضول التمايل ، طبقات الشعراء المحدثين ، أشعار الملوك ، سرقات الشعراء ، مكانتبات الإخوان بالشعر ، الجامع في الغناء<sup>6</sup>

و هو نفسه ما يذكره شوقي ضيف نقاً عن أصحاب الترجم و السير و مشيراً إلى المدرسة التي خرجت ابن المعتز من خلال شيوخه و أساندته فيقول : (( كان ابن المعتز شاعراً مصنفاً من أصحاب مذهب التصنيع ، و كان يعجب بهذا المذهب إعجاباً شديداً دعاه إلى أن يكتب في أدواته و زخرفه كتابه البديع وهو يشهد له بأنه كان فناناً يحسن وضع المصطلحات الفنية ))<sup>7</sup> و لا بأس أن نستأنس هنا أيضاً بكلام جرجي زيدان الذي يقول عنه : (( كان من الأباء و العلماء تتفق على المبرد و غيرهما ، و اشتغل بالعلم و الأدب ، كتاب البديع من أهم كتبه بالنظر إلى اختصاصه في هذا الفن ))<sup>8</sup> و هو هنا ( جرجي زيدان ) يرمي في مسألة صياغة شخصية ابن المعتز العلمية و النقدية إلى الشيخ و الأساند سواء فيما يتعلق بأسمائهم كأعلام ذوي شهرة و علم أم فيما يتعلق باختصاصاتهم العلمية من روایة للأدب و نحو و صرف و غيرها .

ثم ننتقل من ابن المعتز إلى أثره ، فالبديع لابن المعتز و إن كان كتاب بلاغة بالدرجة الأولى إلا أنه يتحدث عن بلاغة النص الأدبي مما يمس بصفة وطيدة النقد الأدبي ، لأنّه و هو يعدد ألوان البلاغة يعدها واردة في النص الأدبي شعراً أم نثراً معبرة عن البيان و الحسن و الجودة أو القبح و الرداءة في النص الأدبي ، و من أجل ذلك جاز لنا أن نبحث في دلائل الجرجاني و أسرار بلاغته عن شيء هو النقد ، و ذلك من خلال التمظهرات التالية لعملية النقد .  
فأما الأول فهو التمثيل فكلما تحدث ابن المعتز عن صنف من أصناف البلاغة و هو البديع سواء في محاسن الشعر أم في عيوبه ضرب عليه مثلاً من الشعر أم من النثر سواء للقدماء أم للمحدثين ، و بغض النظر على أن مصطلحي القدماء و المحدثين مصطلحان نقديان بالدرجة الأولى .

و أما الثاني فهو الشرح فابن المعتز يعمد إلى شرح الأمثلة التي يوردها و يعلق على حسنها أم قبحها مركزاً على ما تعلق منها بالنوع الذي يتحدث عنه من محسنات البلاغة أو عيوب المعاني التي تحدث عنها البلاغيون جميعاً و انفرد ابن المعتز بتسمية و اكتشاف و تفصيل أو إجمال أو اختزال بعضها .

و أما الأمر الثالث الذي يظهر فيه النقد عند ابن المعتز فهو الاختيار في حد ذاته ، فكلما تحدث ابن المعتز عن محسن من محسنات البلاغة أورد عليه أحسن بيت شعري أو أكثر توفر فيه ذلك الصنف البلاغي و كلما تحدث عن عيب من عيوب النثر أو الشعر أورد مثلاً عليه أو أكثر توفر فيه هذا العيب ، و إنما اختار ابن المعتز هذا البيت دون غيره أو هذا القول دون غيره تعبيراً عن موقف نقدي تفضيلي رأى من خلاله أن هذا البيت أو القول النثري أفضل من غيره .

الأمر الرابع يتعلق بمتظهر الحكم بالجودة و الرداءة ، بل و التعليل أحياناً لهذا الحكم النقدي الذي يطلقه ابن المعتز كلما أورد بيته أو قوله مدللاً به على أصناف البيان و البديع ، هذا الحكم النقدي ننتقل به إلى المتظاهر الخامس و هو استخدام مصطلحات القيمة النقدية و التي تعبر بالضرورة عن المفهوم النقدي ، فإن كانت مصطلحات التفضيل و المفضلة و القيمة من مثل : ((السبق و الفن و الإحسان و الإفراط و الإسراف و الإساءة و الحسن و البديع بمعنى الجميل و العدل و الغلبة و المنظوم و المنثور و الكلام و الشعر و التفسير و المتقدمين و المحدثين و لا خير في هذا الرأي الفطير و الكلام القصيبي و القول و مأخذون من و أي التفسيرية و المعنى و الإصابة و العيب و التجنب و العجيب في هذا الباب و التجنيس و السرقة و المعيب و المذهب الكلامي و التكلف و المعاندة و المغرم بالاعتراض على الفضائل و نقاد المتأدبين و محسن الكلام و محسن الشعر و مما ملح في هذا المعنى و حسن التشبيه و حسن الابتداءات و من إعنات الشاعر نفسه في القوافي و تكلفه من ذلك ما ليس له )) و مصطلحات البلاغة النقدية أو النقد البلاغي من مثل ( الاستعارة و التشبيه و الالتفات و تأكيد المدح بما يشبه الذم و تجاهل العارف و التجنيس و التعريض و التعقيد و حسن التضمين و حسن الخروج و الرجوع و رد الأعجاز على الصدر و الكناية و مرسل من الكلام و مطابقة و هزل يراد به الجد )) إلى غير ذلك من المصطلحات النقدية المرتبطة بالبلاغة و التي وردت في كتاب ابن المعتز البديع ولو هي تعبر عن البلاغة من حيث علاقتها بالنقد ، و إذا كان لفظ أي يعبر عن الشرح فإن ألفاظ القيمة و التفضيل من مثل : السبق ، الفن ، غالب عليه ، فأحسن في بعض ذلك و أساء ، تعبر لا محالة عن النقد و ما أكثر ورودها في كتاب البديع لابن المعتز .

## مصطلحات النقد البلاغي عند المرزباني 296 هـ 384 هـ

مثلاً فعلنا مع ابن المعتز السنوي نفعل مع المرزباني المعتزلي ، فمن أساندته عبد الله بن محمد البغوي ، أبي بكر بن أبي داود السجستاني ، ابن الأثيري ، ابن دريد ، أبي القاسم البغدادي كان ذكياً ممتنع المحاضرة والمذاكرة وراوية للأدب واسع العلم بفنون اللغة والأدب من كتبه المoshج ، كتاب الشعر ، أشعار النساء ، أشعار الخلفاء ، كتاب المراثي ، شعر الشيعة ، أخبار عبد الصمد بن المعدل ، أخبار أبي تمام ، أغاني الشعر في المديح والفاخر والهجو ، شعر يزيد بن معاوية ، المفصل في البيان والفصاحة ، الرايق في أخبار الغناء والأصوات ونسبتها إلى المغنين ))<sup>9</sup> مما يعني أن الرجل رغم كونه معتزلياً إلا أنه تلمذ على نخبة كبيرة من علماء اللغة والبلاغة والبيان ، مما يعني ارتباط نقه في كتابه المoshج بالبلاغة ولو بخيط رفيع إذا نظرنا إلى الغاية التي ألف من أجلها الكتاب .

ما إذن أشبه كتاب المoshج للمرزباني بكتاب البديع لابن المعتز من خلال الموضوعات التي تكلم عنها الرجالان من حيث محسن الشعر والنثر وعيوبهما ، لولا أن غاية ابن المعتز في كتابه البديع هي البلاغة بالدرجة الأولى كعلم يحاول أن يحصر أنواعه وأقسامه ثم يدلل عليها بالواقع الأدبي ، وغاية المرزباني في كتابه المoshج هي الشعر من خلاله كونه حسناً أم ردينا من منظور العلماء وعلى رأسهم علماء البلاغة ، وهنا نقطة التلاقي ، ثم علماء اللغة والنحو في الدرجة الثانية ، ودون أن نغفل أن البديع لابن المعتز شامل للشعر والنثر والمoshج للمرزباني خاص بالشعر وحده دون النثر .

ولذلك تتكرر التمظهرات النقدية التي تحدثنا عنها في كتاب ابن المعتز هنا ونحن نتحدث عن المoshج للمرزباني ، حاشا ما تعلق بالمصطلحات المستخدمة من قبل المرزباني فهي ليست نفسها . و من ذلك نجد بالإضافة إلى الألفاظ القيمة والمقابلة التي ذكرناها عند ابن المعتز الألفاظ النقد البلاغي التالية : (( الإقراء ، الإكفاء ، الإلقاء ، السناد ، التأسيس ، الردف ، الحذو ، التوجيه ، الإشباع ، المجرى ، النفاذ ، التضمين ، المقلوب )) كما نجد المصطلحات التالية : (( خير الكلام المستغنى بنفسه ، الألفاظ المستكرهة الرديئة النسج ، التقديم والتأخير و التعقيد ، اختلاف القوافي في الإعراب ، حoshi الكلام ، التناقض ، الكذب في الشعر ، التكلف ، ما يتطير منه ، المشاكلة بين المصارعين ، استعمال الألفاظ الأعممية ، المدح بالصفة الثابتة أفضل ، حسن الدبياجة ، عود الضمير على متاخر ، المعاني التي يقال فيها الشعر ، الاستعارة القبيحة ، الخطأ في الوصف ، المبالغة ، التخليل ، التزحيف ، فساد التقسيم ... الخ )) بالإضافة إلى ما يزيد عن المائة و الثلاثين ( 130 ) مصطلحاً آخر يمكن ذكرها عند المرزباني .

هكذا إذن و عبر هذه الإطلالة الخفيفة على كتابين عباسيين اختص الأول منها بالبلاغة و خرج إلى النقد و اختص الثاني بالنقد و خرج إلى البلاغة و تلاقي الكتاب في استخدام المصطلح النافي ذاته . و هكذا إذن تعافت عدة عوامل و تأزرت في خلق اشتراك مصطلحي نافي عند كل من عبد الله بن المعتز العالم و الناقد البلاغي و عند محمد بن عمران المرزباني في كتابه الموسوع . و مهما يكن من اختلاف في المذهب بين هذين العالمين إلا أن المصطلحات واحدة سواء كانت مصطلحات التفاضل البقيمي أم مصطلحات الفنون البلاغية و العيوب و المحاسن البلاغية و العروضية في النص الشعري العربي و النص النثري على حد سواء .

نعم لقد كانت غزارة المصطلح النافي عند المرزباني أكثر منها عند ابن المعتز و ذلك راجع لاختصاص الموسوع بالنقد و خروجه إلى البلاغة و اختصاص البديع بالبلاغة و خروجه إلى النقد الأدبي كما أسلفنا ، و يرجع الأمر أيضا إلى صغر حجم كتاب البديع فهو يتربع على حوالي 77 صفحة من القطاع المتوسط بينما يتربع كتاب الموسوع على ما يزيد على 460 صفحة من نفس القطاع .

<sup>٠</sup> - الأمير مصطفى الشهابي: المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم و الحديث، ص: 06.

<sup>١</sup> - عبد الله سالم المعطاني: أثر البيئة في المصطلح النافي القديم، قراءة جديدة لتراثنا النافي، كتاب أبحاث ومناقشات الندوة التي أقيمت في النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، 59، د ط، 1990، ج 01، ص: 230، 231.

<sup>٢</sup> - عبد الله سالم المعطاني : أثر البيئة في المصطلح النافي القديم ، قراءة جديدة لتراثنا النافي، كتاب أبحاث ومناقشات الندوة التي أقيمت في النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية ، 59، د ط، 1990، ج 01، ص: 231.

<sup>٣</sup> - عبد الله سالم المعطاني : أثر البيئة في المصطلح النافي القديم، قراءة جديدة لتراثنا النافي، كتاب أبحاث ومناقشات الندوة التي أقيمت في النادي الأدبي الثقافي بجدة ،المملكة العربية السعودية، 59، د ط ، 1990، ج 01، ص: 231.

<sup>٤</sup> - لطفي عبد البديع: الاسم والمسمى، قراءة جديدة لتراثنا النافي، كتاب أبحاث ومناقشات الندوة التي أقيمت في النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، 59، د ط، 1990، ج 01، ص: 206.

<sup>٥</sup> - عبد الله سالم المعطاني : الاسم والمسمى ، قراءة جديدة لتراثنا النافي ، كتاب أبحاث و مناقشات الندوة التي أقيمت في النادي الأدبي الثقافي بجدة ،المملكة العربية السعودية ، 59 ، د ط ، 1990 ، ج 01 ، ص : 229 .

<sup>٦</sup> - عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملاتين ، بيروت لبنان ، ط 03 ، 1980 ، ج 03 ، ص : 378 .

<sup>٧</sup> - شوقي ضيف : الفن و مذاهب في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة مصر ، ط 08 ، د ط ، ص : 265 .

<sup>٨</sup> - جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، د ط ، 1983 ، ص : 471 .

<sup>٩</sup> - عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملاتين ، بيروت لبنان ، ط 03 ، 1980 ، ج 02 ، ص : 555 .